عيون في الحلم

في مجموعة عبد الرحمن الربيعي القصصية ، اصرار على الحب المجاني ، فهو حين ينتقل بين مآسي وهموم أبطاله ، ويتعامل معها ببساطة وواقعية لا يدعو الى شيء سوى الى الحب . يدفع القارىء الى الابتسام بحنان شفاف أمام أبطال يعيشون أوجه المأساة دون ان يجعلوا من مأساتهم حيزا تراجيديا صراعيا . فالمأساة التي تدفع الى السخرية هي الوجه الآخر للواقع ، وهي ايضا المقترب الآخر للقصة القصيرة او للرواية . نتعرف على نماذج لا تطلب شيئا منا ، لانها لا تطالب الحياة بأكثر من خيباتها . الانسان كما هو ، حين تأخذه تفاصيل حياته اليومية ، ولا تدع له مجالا للتفكير بمصيره . وحين يطرح مأساة هذا المصير ، فانه يطرحها بشكل مبسط وهادىء ، يتعامل مع « قرنيه » بحنان ، وتخرج ابتسامته لتغطي حيزا تراجيديا فقد قدرته على قتال الحياة ، فرضي بها كما هي دون تفلسف مفتعل ، وابتدأ ينسج علاقاتها من جديد .

الحس المأساوي الثاني : خلف البسمة التي ترتسم على المستوى الاول لهذه القصص، يقع حس مأساوي مرهف وبالغ الحساسية . لا يأخذ من المأساة حجمها المباشر ، ولكنه يتوقف عند قدرتها على رسم شخصيات عادية لا تنسى . هنا تقع قيمة هذه القصص في مرحلتنا التأسيسية هذه ، حيث نفاجأ بأبطال يبقون في الذاكرة بوصفهم يحملون احساسا عاما ، ثم ينتشرون على مساحة علاقاتنا اليومية . تتوقف امامهم وتبدأ من خلال علاقاتك اليومية بهم اكتشاف المأساة الحقيقية التي تلف حياتهم . يظهر هذا جليا منذ القصة الاولى « مملكة الوعول » ، حيث لا يزال الحس المأساوي في المقدمة ولم يختف بعد خلف النكتة السوداء بشكل كامل . فسعدي السجين ، يخرج من السجن ليكتشف ان زوجته التي يحبها قد أصبحت مومسا : « وتناقلت الافواه والآذان همسات سرية أخذت تضخمه وتقطعه اوصالا ثم تنشر اشلاءه على حبل طويل » . لكنه يكتشف استحالة الثأر لشرفه او حتى ترك زوجته . فيبقى الى جانبها مستسلما وراضيا بدور القواد التي تعصف في رأسه ذكريات النضال . وحين يأتي السرد القصصي ليتعامل معه بشكل نهائي ، فانه يحيل الحس المأساوي الى سخرية مريرة : « وعندما هز رأسه شعر به ثقيلا كرخامة كبيرة . وامتدت يده لتتحسسه فاصطدمت بقرنين صغيرين » . لكن هذه السخرية هي التعبير الاساسي عن الحس المأساوي الثاني ، حيث تأتي استسلاما أمام اوجاع لا تحصى لا تتوقف أمام الوجع ، بل تتركه ينساب على مساحة العلاقات الانسانية . ففي قصة « صفحات منكسرة من تاريخ المدن التي انتصرت ». نتعرف على شخصية « طاهر عبدالله العيسى » في موقف الهرب والتشرد . لكن هذا الموقف ليس حالة خاصة او متعذرة . لذلك يتعامل معه المؤلف بحنان وقسوة . فالاختفاء عن أعين السلطة هو في الوقت نفسه تحد للـــزمن والاشياء . لذلك يأتي السرد القصصي ليلخص : « انعطف في زقاق جانبي لم يسلكه من قبل ، وعندما وصل الى نهايته وجده مسدودا . كان الزقاق فارغا تماما . وعندما تلفت لم تسقط عيناه عـلى وجه او نافذة ففتح ازرار بنطاله وأخذ يتبول على الجدار » . وفي قصة « الوقيعة » نتوقف طويلا أمام شخصية عباس النداف . فهو نموذج عادي ويومي للرجل الذي تسحقه علاقاته ، حتى زواجه من فاطمة يتحول الى مدخل لانقاذ حياته اليوميـة من قمعها له .

قد تكون هذه النماذج الثلاثة مثلا واضحا على الحس المأساوي الذي **يستقطب** القصة دون ان يلقي بظلاله عليها . يأتي هذا الاستقطاب في حركتين أساسيتين : **الحوار** العادي جدا والذي يرسم اطارات العلاقة الاجتماعية . **والسرد** الختـــامي التدخلي ، الذي يرفع هذا الاستقطاب الى مستوى الحلم اليومي . يتدخل الكاتب في السرد ليرســم النهاية ، او يستنطق أحد ابطاله هذه النهايـة

---

* عبد الرحمن مجيد الربيعي : **عيون في الحلم** ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشـــق ١٩٧٤ .